الحسّ الاستفهامي وهاجس الكتابة في قصيدة رأيته بأم حرفي "لعبد القادر رابحي"

The sense of inquiry and obsession of writing in a poem I saw him with Umm Harfy "by Abdelkader Rabhi"

آجقو سامية*

جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، mohamedbounekhel@gmail.com

تاريخ الوصول2020/11/28 تاريخ القبول 2021/06/21 تاريخ النشر2022/03/31

ملخص:

يتغيا هذا المقال إستنطاق النص الشعري وتثوير سياقه التساؤلي من خلال علامات نصية وهي الاستفهام، وعلى انحناءته تستقيم الحقيقة الشعرية بمنظورها الانزياحي وفق رؤية فنية وفكرية تمتهن فعل الكتابة وتعيد صياغة الذات والآخر، مادامت الكتابة قلقا وتساؤلا وانتهاكا وخرقا وتجاوزا ،ويأتي التكرار دالا شعريا يؤكد دور الاستفهام ويعمق حس التساؤل,

الكلمات المفتاحية: الكتابة، التساؤل، الاستفهام، التكرار، السياق.

Abstract:

This article covers the interrogation of the poetic text and revolutionizes its questionable context through textual signs, which are the interrogation, and on its curvature the poetic truth straightens with its shifting perspective according to an artistic and intellectual vision that abuses the act of writing and reformulates the self and the other, as long as the writing is concerned, questioning, violating, violating and exceeding, and the repetition comes poetic indicative of the role of interrogation And it deepens the sense of wonder.

Keywords: Writing, questioning, questioning, repetition, context.

1. مقدمة:

إن النص الأدبي مكان وسكن للذات المبدعة، بواسطته تعلن عن تمردها وثورتها على كثير من العوائق الاجتماعية والسياسية، تفضح المخبوء من الواقع وتفصح عن المحظور فيه، كما أنها تكسر نمطية المألوف اللغوي، وتستأنس بظل المجاز على النص، وخاصة الشعري منه، وبالتالي تتولد الرؤيا بفعل اللغة التي توجهها ليكون للأشياء وللعالم وللأنا والآخر بعدا مغايرا، إنه النص المؤسس على قلق التساؤل، ومرجعية الواقع، وهاجس المستقبل، هذا الجمع بين المختلف والمؤتلف على مائدة الإبداع يتيح للسياق الشعري تحريك الثابت وزعزعة المستقر من الكتابة، فالنص الشعري على هذه الخلفية يحفظ المسافة الجمالية التي تربط النص بقرائن لغوية ودلالات حداثية كالخلق والتجاوز والتواصل، والعبور وكلها تجتمع بحبل سريّ واحد يطرح بوادر التساؤل حول فعل الكتابة وهاجس التساؤل في المتن الشعري رأيته بأم حرفي؟

* المؤلف المرسل.

2. العنوان (اختزال لفعل الكتابة)

حظيت العنونة في النصوص الأدبية بدور بالغ الأهمية بعد التطورات المتسارعة التي عرفتها الدراسات الأدبية والنقدية، حيث بات العنوان نصا استهلاليا يوازي في حضوره الدلالي المتن الأدبي، ومما لا شك فيه أن إستراتيجية العنونة ترتبط بالمؤهلات الثقافية للقارئ؛ فالعنوان يدل على ذاته من خلال وجوده الفعلي على رأس النص، كما أن حضوره يرتبط « بانكسار حاد في السياق الحواري الذي يميّز الثقافة الشفاهية، هذا السياق الذي يفترض زمكانية واحدة تدمج المتكلم والمتلقي»[1] وهي المفارقة الزمنية التي انتقلت بالعنوان من المشافهة إلى فعل الكتابة.

ويأتي عنوان القصيدة رأيته بأم حرفي ليعلن إنزياحه ،وبالتالي يثوّر السياق الذهني للقارئ ويربك أفق توقعه، فالثابت البلاغي أم عيني يتحوّل إلى دال مشتق من فعل الكتابة وهو الحرف (أم حرفي) وفي هذا الخرق خلق وجمالية، وهي صيغة أثيرة تنفتح على دلالات كثيرة من خلال تلك الدوال التي تؤثث لمناخ الكتابة وفعل القصيد ، ففي قول الشاعر:

لا تغتني القصيدة
من الكتابة عن الفقر..
لا رصيد للفقر
غير ما يدسّه من همّ.
في جيب القصيدة..
أيها النائم في حبر المسّرات
إلى أن يقول:
لا وطن بدون قصيدة..
لا قصيدة
بدون
هم [2]

إنه الحوار الداخلي الذي يربط أوصال النص، ويعكس صورة العنوان من خلاله(فالقصيدة – الكتابة – الحبر – الوطن – والهم) كلها دوال تعكس دلالة العنوان وتجلياته في المتن الشعري، إنه الصوت المتعدد الذي يسقط سقوطا حرا على الوطن من خلال الضمير المتصل (رأيته)، إنه الوطن الذي يفرض همّ الكتابة وعسر القصيدة، فمن خلال قوله يتضح أن القصيدة همزة وصل لا قطع بين الوطن والهم، فحين تتصل الكتابة بوجع الوطن تنطق الحروف وتنزاح الكلمات عن معناها المألوف وتستعين بالترميز، إنه البوح الذي يعتلي مقام الكتابة فتتفجر ينابيع الصدق، ويتولد فضول التجربة وهو ما يمنح النص طاقة الإغراء فينجذب القارئ إليه، حيث العذاب ونشوة الاعتراف، وهنا تصبح الكتابة «إشباع للفضول، والكتابة استجابة لأنانية الذات، غرور الطموح وشطحات الرغبة، وارتعاشات الجسد، تكتب من الداخل عن الخارج، أو من الخارج عن الداخل، أو تغرق البراني في الجواني، أو تلبس الممكن بالمستحيل أو تدمج الأسود في الأبيض (...) ذلك بأن الكتابة التي تنهض على سحر اللغة التي تقوم على شرود المعاني التي تنهض على البحث عن الحقيقة التي

تسرح في المجهول السحيق الذي يعوم في العدم والفناء: ليست لدى نهاية الأمر إلا ممارسة لمستحيل... والتماسا لمجهول، وتكريسا لعدم، فهل الكتابة مجرد م**ستحيل؟... كل السؤال... هنا [3]

وكل الإجابة أن الذات الشعرية حين تكتب نصها فهي تكون قد كتبت ذاتها من خلال الآخر، ومن خلال الداخل عن الخارج، إنه الصوت المسكون بالسؤال والمقتنع بأن «المعرفة تؤسس حوارا بين الكائنات والذوات، وسبر الأغوار والإنصات وكشف الوجود الجوهري؛ فالحكمة الشعرية تقضي جسورا بين الذات والجسد والعالم، وفق الإشراقة الشعرية: أنا والآخر» [4]

وحين نتأمل فعل الرؤية واقترانها الانزياحي بالحرف (رأيته بأم حرفي) تتأكد الرؤيا المستقبلية الاستشرافية التي تتجاوز الرؤية الحسية عن طريق اللغة باعتبار الحرف علامة دالة عليها، كما أن ضمير الهاء يَحفظ موقع المفعولية لهذا الوطن الذي رُفع على أكتاف الحرف ونُصِّب على حرير الإبداع كما في قوله:

أيها الوطن الرائع..
أيها العادل حتى الظلم
بين أبنائه..
القصيدة شائكة أصلاً
لا توجد قصائد من حرير
أن تجرحك القصيدة..
فثمة حرير ملطخ بدم البهاءات[5]

حين يُزرع الوطن في القصيدة تنفجر مقصات الأنهار، في معانيها وتهكمها من واقع موبوء متخم بالأحلام الكاذبة وبالوعود الواهية، هو قدر هذا الوطن كما قال الشاعر:

مغلّفة برائحة الفقراء
شوارع الأمس المتعبة
تجرّ أنهارها المقصوصة إلى غد متخمٍ بالمواعيد... [6]

حين نصغي إلى هذه الأشطر الشعرية نشعر بتلك الجمالية المتدفقة بين أوصاله، والتي يخلقها هذا الجمع بين الدوال الشعرية في نسيج لغوي يخرق ألفة الثابت وسيمترية المعنى، إنه التجاور الذي يصنع التجاوز، فتمتد أيادي المعنى لتربك المنطق وتفتح أسرار البلاغة (فالرائحة والفقراء) و(الشوارع والأمس) و(الشوارع والتعب) و(الأنهار والمقصّات) و(الغد والتخمة) كلها دوال جاذبة في النص تشيع فيه فتنة القول وإغراء المعنى؛ فالرائحة تسترسل حواسيا لتلتصق بالفقراء، وفي هذا تدليل على هذه الفئة المهمشة في وطن تحصد فيه الرؤوس إذا أينع صبرها، وتأتي الشوارع لترتبط بالزمن (الأمس) وفي هذا ما يؤكد تعاضد الزمن والمكان باعتبارهما لحمة واحدة تؤطر الأحداث، إنه التواؤم التيمي الذي يستدعي صفة المتعبة في تفعيل للسياق الشعري الذي أرهق وأتخم بالوعود لغد مجهول.

3. الحس الاستفهامي وشيوعه في القصيدة:

تعد صيغة الاستفهام علامة جاذبة في النص الشعري تربط بين أوصاله وتفتح دواله على كثير من الاحتمالات والتأويلات؛ فعلامات الاستفهام العالقة في أذيال الأشطر الشعرية، تشكل علامة نصية بارزة تفتح شهية القارئ وتثير فضوله.

وحين نقتفي أثر الاستفهام في هذا المتن الشعري نجده قد تردد كثيرا بصيغ مختلفة، ما يرفع النص إلى منصة التعالي والمساءلة ومحاكمة الواقع من خلال الكلمة وهذا في قول الشاعر:

كمأة الريح العمياء
المدفونة تحت تراب الغفلة..
ذات ربيع ممطر
لم تعد تنظر إلا لعورتها..
ربما بالغتُ
هل للكمَأةِ عيون أصلاً..!
عفوا..
هل للكمأة عورة ؟؟ (7)

وعلى اِنحناءة علامة الاستفهام يستقيم المعنى الشعري في استعارة الكمأة دالا شعريا ينبت تحت تراب الغفلة إنه النبات الذي لا ساق ولا عرق دساس له، فحين يسأل الشاعر هل للكمأة عيون وعورة فهو يعطيها بعدا إنسانيا يشخّص من خلالها الواقع السياسي وأوضاعه الطارئة.

وحين يقول الشاعر:

كيف يمكن للربيع الطلق
أن يأتي باسماً
إلى موائد الفقراء..
هل للفقراء موائد ؟
هل للفقراء روضة ؟
في قصائد النثر المجنونة
تركض فيها أحلامهم البريئة ؟
هل لهم بيت صغير..
يبيتون فيه..
في انتظار حفلة قطفِ الأنهار
من بغتة القمر المسروق ؟
لا أقول بيتٌ بيتْ..

مكان فقط ..

لا بأس إن كان ضيّقا..

يختلي فيه الفقراء (8)

يتكشّف هذا المقطع الشعري عن شبكة أيقونية من علامات الاستفهام، التي صعّدت الفعل الدرامي للقصيدة ورسمت مشهد الفقر بتفاصيله الدقيقة ما يحيل على رؤية الشاعر الفكرية والنفسية فضلا على الفنية، حين تبدأ الأسئلة بالإلحاح فيتكرر الاستفهام في صيغه المختلفة بحثا عن الحقيقة الشعرية في ايماءاتها ورموزها فحين يقول الشاعر: (كيف يمكن للربيع أن يأتي باسما) فهو يتحسر في قرارة نفسه على هؤلاء الفقراء الذين غاب عنهم ربيع الحياة في معناه الرمزي لا بمعناه الطبيعي، ويتعمق هذا المعنى حين يتساءل مستنكرا (هل للفقراء موائد ؟ هل للفقراء روضة ؟) هل لهم بيت صغير؟ إنه الضغط الاستفهامي الذي يفرض ضغطا نفسيا على القارئ من خلال آلية التكرار (هل – الفقراء) التي فرضت وجودها الدلالي في بنية النص، فالفقر هو الرجل الموعود بالقتل بالمنظور الديني وفي هذا دال على تهميش الفقراء ونبذهم في عراء الأيام.

كما يرتبط الحسّ الاستفهاميّ عند الشاعر بفلسفة وجودية وهي المساحة الرؤيوية التي اقترنت بدال الحياة كما في قوله:

كلما تذكرتها

تناستني..

هل للأمر تفسير

لعلها الحياة ..!

وهنا يأتي النحت بمعناه النحوي في الجمع بين أسلوبين بلاغيين (الاستفهام والتعجب) في جملة شعرية واحدة (هل للأمر تفسير لعلها الحياة... !) تحمل في كفّها قلقا فكريا ونفسيا وهاجس الإنسان وخوفه من الحياة تقلباتها.

وتأتي قوّة الاستفهام حين تتلبّث في الزمن كما في قول الشاعر:

كيف تستوي اليرقات على ظهر سفينة الوقت الضيق؟ لا مكان للتوضّؤ بفيوضات القمر النائي في بهجة التحليق، كلما ركبت الفلك أحسست بدوار عنيف تنتابني الحسرات بين الحين والآخر.. على ما كان من حال اليرقات.. المستويات على ظهر السفينة.. (9)

وفي هذه القصة الشعرية يستفحل الاستفهام حين يرتبط بالزمن ويعكس تجاعيده على اليرقات في ضعفها وسكونها واستسلامها لسفينة الوقت التي تنخر عباب الحياة.

ومن هنا ندرك أن نثر الشعر مطية أخرى للشاعر، تحمل سؤال الذات وقلقها وهاجسها من خلال رمزية السفينة واليرقات واستوائهما على ظهر الاستفهام وكلها تحكي حكاية طوفان الزمن وتقلبه، وتهميش الضعيف، وهو ما يولّد الحسرة ويخلّف الألم.

ويتصاعد المدّ الاستفهامي في المتن الشعري حين يقول:

الفقر كذلك يتفتّح في موسم الربيع.. ويفخر بألوانه البهيّة، تماما كما عبّاد الشمس في حقول التلّ الجرداء..

- هل تعرفون الفقر الأزرق..؟ (10)

وهنا يستثمر الاستفهام الطاقة اللونية، حين يربط الفقر باللون الأزرق، وفي هذا الجمع طرح للدلالات الكنائية للون؛ فالأزرق سيمياءيا يحمل دلالة الاتساع والأمل والانشراح وحين يقرن بالفقر يأخذ فقط دلالة الاتساع كون الفقر قد تفشى كالوباء في الوطن.

4. التكرار ودوره في تعميق الحس الاستفهامي:

يعد التكرار آلية صوتية وتقنية جمالية، تكتسب طابعها الوظيفي في النص انطلاقا من تجانسها الدلالي، حيث «يشكل التكرار نسقاً تعبيريا في بنية الشعر التي تقوم على تكرير السمات الشعرية ومعاودتها في النص بشكل تأنس إليه النفس التي تتلهف إلى اقتناص ما وراءه من دلالات مثيرة» (11)

والثابت لا المتحول أن التكرار يزيد من قدرة المتلقي على التفاعل مع النص الأدبي بما يحمله التكرار من «وظيفة الامتاع والإقناع، يعمل على تنامي القصيدة ويوسع من حركة الانتشار المنتجة للإيقاع والباعثة للنغم بفضل الهارمونية **Harmonie** التي تجمع بين عناصره» (12)

يمتلك الشاعر قدرة فائقة على تعميق الحس الاستفهامي من خلال التكرار، الذي ينقل النص من حالة الرتابة والإبلاغ إلى حالة من التساؤل والتدفق الشعوري ففي قوله:

هل للفقراء موائدُ ؟
هل للفقراء روضة
في قصائد النثر المجنونة
تركض فيها أحلامُهم البريئة ؟
هل لهم بيت صغير
يبيتون فيه
في انتظار حفلة قطف الأنهار
من بغتة القمر المسروق ؟
لا أقول بيت بيت (13)

يشكلّ تكرار عبارة (هل للفقراء) نواة دلالية تشع في القصيدة وتشد أوتادها في ذهن المتلقي بما تخلّفه من إيقاع صوتي ودلالي، فهي موضوع القصيدة وعاملها؛ إذ تتكرر في أوصال النص «في سياق شعوري كثيف يبلغ أحيانا درجة المأساة ومن ثم فإن العبارة المكررة تؤدي إلى رفع مستوى الشعور في القصيدة إلى درجة غير عادية وباستناد الشاعر إلى هذا التكرار يستغني عن عناء الإفصاح المباشر وإخبار القارئ بالألفاظ عن مدى كثافة الذروة العاطفية» (14)

ويتكثف التكرار اللاشعوري ليرسم مخطط بيت هو كل أحلام الفقراء حين يكرر الشاعر لفظة (بيت / يبيتون) في تأكيد على أهمية هذا المبتغى عند الفقراء ففيه تركض أحلامهم وعلى حدّ قول الشاعر:

لا بأس إن كان ضيقا

يختلي فيه الفقراء

بحبيباتهم المتطلعات إلى احتضان فقير صغير [15]

وفي السياق نفسه، يتحرك التكرار ليرسم علامات اِستفهام ويؤكد سياقها الشعري كما في قول الشاعر:

هل تعرفون الفقر الأزرق

- الفقر الأزرقُ [16]

تشكل عبارة (الفقر الأزرق) وحدة تكرارية اِستأثرت باهتمام طاوع النَفَسَ الشعوري من خلال تأكيده اللفظي والإيقاعي، بما يسدّ الحاجة الفكرية والنفسية للشاعر ومن ثمّ إلى المتلقي.

ويأتي قول الشاعر:

هل للكمأة عيون أصلا.. !

عفـوا..

هل للكمأة عورة.. ؟؟ [17]

يخلق تكرار العبارة (هل للكمأة) في السياق الاستفهامي تسارعا لفظيا وتتابعا دلاليا حيث عمد من خلاله الشاعر إلى أنسنة هذا النبات (الكمأة) وبثّ الهوية فيه، من خلال قرائن لغوية (العيون- العورة) وفي تورية بعيدة المدى عن الفئة التي تتسلّق أعناق الفقراء وتصعد على أكتافهم، هي الفئة التي شبهها الشاعر بالكمأة العمياء في دلالة على كينونة هذا النبات المتطفل الذي ينبت تحت تراب الغفلة، فلا ساق له ولا عرق يغذيه أو يؤكد منبته أو هويته، هو حال هذه الفئة التي راهن عليها الشاعر إبداعيا.

4. خاتمة

وبناءا على ما تقدّم آنفا تبقى الكتابة فعلا منتجا يعيد ترتيب أصابع الذات وعلاقتها مع الآخر، فسؤال الذات هو تساؤل كتابي عن العالم والآخر.

ويعد النص الشعري "رأيته بأم حرفي" دعوة صريحة لاشتهاء الورق وانفتاحا على الواقع وفك مغاليقه، من خلال ألفاظ أثثت للمشهد الشعري ولفعل الكتابة (القصيدة – الشاعر – الكتابة – الحبر – الحرف...)

ويأتي الاستفهام بصيغه المختلفة (هل، كيف) ليحيل على الأزمة التي تعيشها الأنا الشاعرة في ظل هذا الواقع، الذي وضعته الكتابة في دائرة الضوء.

إن اعتماد الشاعر على الاستفهام هو خلخلة لرتابة القول الشعري، وإرباك سياقه وفي الآن ذاته يمارس ضغطا نفسيا على القارئ فيتخيّل ويؤول، وهو ما يخضع النص الشعري إلى منطق خاص من التأليف .

يعد التكرار من الآليات القارّة في الخطاب الشعري، له وظائف صوتية ودلالية وجمالية وقد ورد التكرار في نسيج النص بما يعزز معناه في سياقه الشعري، وارتبط بالاستفهام الذي تحكمّ في تمدّد المعنى وتحريره بلاغيا.

ويبقى الاستفهام علامة دالة على قلق الذات وهاجس التساؤل حول الذات والآخر.

5- الهوامش:

1- خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية) ، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1، دمشق: 2007، ص167.

2- عبد القادر رابحي، مقصّات الأنهار، ص107-108.

3- عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد، متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة، الجزائر: 2005، ص12.

4- عبد القادر الغزالي، الصورة الشعرية وأسئلة الذات قراءة في شعر حسن نجمي، 2004، مؤسسة النشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، المغرب: ص151.

5- عبد القادر رابحي، مقصّات الأنهار، ص107.

6- المصدر نفسه، ص100.

7- المصدر نفسه، ص99.

8- المصدر نفسه، ص99.

9- المصدر نفسه، ص102.

10- المصدر نفسه، ص105.

11- حسن الغرفي، حركية الإيقاع في الشعر العربي المعاصر إفريقيا الشرق، المغرب: 2001، ص81.

12- عبد الرحمان تبرماسين، البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر: 2003، ص198.

13- عبد القادر رابحي، مقصّات الأنهار، ص102.

14- نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، ط6، بيروت، لبنان: مارس 1981، ص287.

15- عبد القادر رابحي، مقصّات الأنهار، ص102.

16- عبد القادر رابحي، مقصّات الأنهار، ص99.

17- عبد القادر رابحي، مقصّات الأنهار، ص105.

6. قائمة المراجع:

1. خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية) ، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1، (دمشق: 2007)
2. عبد القادر رابحي، مقصّات الأنهار.
3. عبد المالك مرتاض، في نظرية النقد، متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة، (الجزائر: 2005).
4. عبد القادر الغزالي، الصورة الشعرية وأسئلة الذات قراءة في شعر حسن نجمي، 2004، مؤسسة النشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، المغرب.
5. حسن الغرفي، حركية الإيقاع في الشعر العربي المعاصر إفريقيا الشرق، (المغرب: 2001).

6. عبد الرحمان تبرماسيين، البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، (مصر: 2003).
7. نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، ط6، بيروت، (لبنان: مارس 1981).